الفصل الخامس

الغزالى كما فهمته

لقد فهمت الغزالى باحثاً يشرف على الناس من علُ . فيراهم مختلفين فى الاستعداد والمدارك ، ويرى أن ما يليق بواحد منهم أو بجماعة قد لا يليق بالآخرين ، فيقدم لكل منهم ما يليق به .

لهذا أرى أن الغزالى أبهم وأنجد فى تآليفه : فصعد إلى مستوى الخاصة حيناً ، فصور لهم الحقيقة ناصعة جلية ، لا يشوبها لبس ولا يخالطها غموض ؛ ونزل إلى مستوى العامة أحياناً ، فصور لهم الحقيقة بالقدر الذى يطيقونه . وبالمقدار الذى يرى أن الشرع كلفهم به .

أليس قد فهم من قوله تعالى : [ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن] ، أن الله تعالى قد طلب من الدعاة والمصلحين ، أن يجعلوا الحقيقة نسبية ، يختلف تصويرها باختلاف حال من تقدم إليهم ؟

أليس قد فهم من قوله صلى الله عليه وسلم : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يكذب الله ورسوله » . أن من الواجب أن تخفى الحقيقة أو جانب منها عمن لا يطيق إدراكها ؟

أليس يقول فى شرح المذهب بالمعنى الثانى فى نص ميزان العمل السابق : إن المعلم ينبغى أن يتنزل إلى مستوى من يعلم ويرشد . فلو صادفه مسترشد تركى أو هندى أو بليد الطبع ولم يطق فهمه أن يدرك أن الله تعالى ليس فى مكان . وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه : قيل له إن الله على العرش لئلا يكذب بالحقيقة إن ذكرت له كما هى . وإن صادفه ذكى ذكر له الحقيقة كما هى ؟ ! .

أليس يقول عن العامى[١]:

[يؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيماناً مجملا ، من غير بحث عن الحقيقة والكيفية ؛ فإن لم ينفعه ذلك ، وغلب على قلبه الإشكال والشك ، فإن أمكن إزالة شكه وإشكاله بكلام قريب من الأفهام ، وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً عندهم فذلك كاف] ؟!

أليس يقول فى مشكاة الأنوار[٢]:

[ليس كل سر يكشف ويفشى ولا كل حقيقة تعرض وتجلى؛ بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، ولقد قال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر] ؟ !

أليس يقول: [إن الحكمة إن غذى بها غير أربابها ، أضرت بهم كما يضر لحم الطير بالطفل الرضيع] ؟ !.

أليس يقول[٣] :

[الوظيفة السادسة[٤] : ينبغى أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله ؛ فينفره ، أو يخبط عليه عقله ؛ اقتداء فى ذلك بسيد البشر — صلى الله عليه وسلم — حيث قال : «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة على بعضهم » .

وقال على رضى الله عنه وأشار إلى صدره: إن ههنا علوماً لو وجدت لها حملة .

وصدق رضى الله عنه ؛ فقلوب الأبرار خزائن الأسرار . فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد .

هذا إذا كان يفهمه المتعلم ، ولم يكن أهلا للانتفاع به . فكيف فيما لا يفهمه ؟

---

(١) ص ١٥٨ « الرسالة الوعظية » له .

(٢) ص ١ .

(٣) جـ ١ ص ٩٦ الإحياء .

(٤) يعنى من وظائف المعلم المرشد .

. وقال عيسى عليه السلام : «لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير». فإن الحكمة خير من الجوهرة ، ومن كرهها فهو شر من الخنازير .

ولذلك قيل كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزنْ له بميزان فهمه . حتى تسلم منه وينتفع بك ؛ وإلا وقع الإنكار ، لتفاوت المعيار .

وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ؛ فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كتم علماً نافعاً ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ؟! . فقال : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يفقه وكتمت فليلجمنى : فقد قال الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده أو يضره، أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منح المستحق .

أأنشر دراً بين سارحة النعم . . . .
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة وإلا فمخزون لدى ومكتتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة :

أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه . فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل عنه ؛ إذ يظن كل أحد : أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه وتعالى فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة ، وأضعفهم عقلا ، هو أفرحهم بكمال عقله .

وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ، ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف ، من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده ؛ بل ينبغى أن يخلى وحرفته ؛ فإنه لو ذكرت له تأويلات الظاهر انحل عند قيد العوام . ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ؛ فيرتفع عنه السد ، الذى بينه وبين العامى ، وينقلب شيطاناً مريداً ، يهلك نفسه وغيره .

بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدينية ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، وتملأ قلوبهم من الرهبة والرغبة ، فى الجنة والنار ، كما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة ؛ فإنه ربما تعلقت شبهة بقلبه ، فيعسر عليه حلها ، فيشقى ويهلك »] ؟ .

أليس يقول[١] :

[وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ، ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ، ويتركوا العلم للعلماء . فإن العامى لو يزنى ويسرق كان خيراً له من أن يتكلم فى العلم . فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم وقع فى الكفر من حيث لا يدرى . كمن يركب لجة البحر ، وهو لا يعرف السباحة »] ؟ .

أليس يقول فى كتابه « الاقتصاد فى الاعتقاد » الذى هو أوسع كتاب له فى علم الكلام[٢] » .

[والنظر الآن فى تحقيق هذا الفصل ، ينجر إلى البحث عن الروح والنفس والحياة وحقائقها . ولا تحتمل المعتقدات التغلغل إلى هذه الغايات فى المعقولات]

أليس يرى[٣] أن هناك أموراً اعتقادية لا خطر على بعض الناس فى الجهل بها .

[أما الأمور التى لا حاجة إلى إخطارها بالبال ، وإن خطرت فى البال فلا معصية فى عدم معرفتها ، وعدم العلم بأحكامها ؛ فالخوض فيها بحث عن حقائق الأمور وهى غير لائقة بما يراد منه تهذيب الاعتقاد] ؟ .

بل ربما كان الخطر فى التعرض لمعرفتها ، كما قال : [والحكمة يستضر بها الضعفاء] .

أليس يقول[٤] :

[وهذه العلوم الأربعة : أعنى علم الذات ، والصفات ، والأفعال ، وعلم المعاد ؛ أو دعنا من أوائلها ومجامعها ، القدر الذى رزقنا منه مع قصر العمر وكثرة

---

(١) الإحياء جـ ٨ ص ٦٣ .

(٢) ص ٩٧ .

(٣) ص ٩٩ من الاقتصاد .

(٤) جواهر القرآن ص ٤٤ .

الشواغل والآفات ، وقلة الأعوان والرفقاء ؛ بعض التصانيف . لكنا لم نظهره فإنه يكل عنه أكثر الأفهام . ويستضر به الضعفاء وهم أكثر المترسمين بالعلم ، بل لا يصلح إظهاره ، إلا على من أتقن علم الظاهر ، وسلك فى قمع الصفات المذمومة من النفس ، وطرق المجاهدة ؛ حتى ارتاضت نفسه ، واستقامت على سواء السبيل ، فلم يبق له حظ فى الدنيا . ولم يبق له طلب إلا الحق ، ورزق مع ذلك فطنة وقادة ، وقريحة منقادة ، وذكاء بليغاً ، وفهماً صافياً .

وحرام على من يقع ذلك الكتاب فى يده أن يظهره إلا على من استجمع تلك الصفات] .

فهذا النص صريح فى أن للغزالى كتاباً ، أودعه حقيقة الأمر ، فى مسائل الذات والصفات ، والأفعال ، والمعاد .

وصريح فى أن الغزالى يرى أن عرض هذه الحقيقة ، على عامة الناس ، بل على أكثر المشتغلين بالعلم ، مهلك لهم وضار بهم ، لهذا فهو يوصى أن يحال بينهم وبينه ؛ ولا يكاشف بأمره ، إلا من تأهل له ؛ واستجمع بضع صفات يندر توافرها لشخص .

وهذا النص يفيد أن ما عدا هذا الكتاب من كتب الغزالى ، ككتاب قواعد العقائد ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وكتاب تهافت الفلاسفة ، وغيرها من الكتب المشهورة المعروفة ، لا يضن الغزالى بها على الجمهور ، ولا يرى بأساً فى أن تقع تحت يده ؛ لأنه ليس فيها من المعارف ما يخافه الغزالى عليه ، بل فيه ما يتناسب ومستواه الفكرى .

وإذن فهى « لا تحوى خالص الحقيقة ولا صريح المعرفة .

وهذا الذى نستنبطه استنباطاً ، يصرح لنا به الغزالى تصريحاً لايحتمل التأويل حيث يقول(١) :

[ومعرفة أدلة العقيدة ، قد أودعناها الرسالة القدسية ، فى قدر عشرين ورقة ، وهى أحد فصول كتاب قواعد العقائد ، من كتاب الإحياء .

وأما أدلتها ، مع زيادة تحقيق ، وزيادة تأنق ، فى إيراد الأسئلة والإشكالات

---

(١) الأربعين فى أصول الدين ص ٢٥ .

فقد أودعناها كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» ، فى مقدار مائة ورقة ، فهو كتاب مفرد برأسه ، يحوى لباب علم المتكلمين ، ولكنه أبلغ فى التحقيق ، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة ، من الكلام الرسمى ، الذى يصادف فى كتب المتكلمين .

وكل ذلك يرجع إلى الاعتقاد لا إلى المعرفة ؛ فإن المتكلم لا يفارق العامى ، إلا فى كونه عارفاً ، وكون العامى معتقداً(١)، بل هو أيضاً معتقد ، عرف مع

---

(١) يعنى أن معتقد المتكلم هو معتقد العامى ؛ غاية الأمر أن المتكلم يعرف الأدلة دون العامى ، وهذا يفيد أن القدر الذى حجبه الغزالى عن العامى من الحقيقة ، حجبه أيضاً عن المتكلمين ، لأنه لا يرى بينهما فرقاً من هذه الناحية .

ونزولا على مبدأ اعتبار الناس طبقات نرى الغزالى يروج لكل فريق ، المستوى الذى يراه لائقاً به ، فيثنى عليه معه ، ويقول إنه نهاية الكمال ، التى ليس وراءها نهاية . وحقاً إنه نهاية الكمال له ؛ لأنه لو طلب شيئاً وراءه لتعثر وسقط ، فصح أنه نهاية الكمال له ، وإن لم يكن نهاية الكمال لغيره .

لذلك كان إذا تحدث مع علماء الكلام من أهل السنة قال :

[الحمد لله الذى اجتبى من صفوة عباده ، عصابة الحق وأهل السنة ، وخصهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة ، وأفاض عليهم من نور هدايته ، ما كشف به عن حقائق الدين ، وأنطق ألسنتهم بحجته التى قمع بها ضلال الملحدين ، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين ، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين ، وعمر أفئدتهم بأنوار اليقين ، حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين . . . إلخ] .

وإذا تكلم مع العامة قال :

[وليس الطريق فى تقويته وإثباته — يعنى الإيمان — أن يعلم صنعة الجدل والكلام ، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره ، وقراءة الحديث ومعانيه ، ويشتغل بوظائف العبادات ، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً ، بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها ، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم ، فيكون أول التلقين ، كإلقاء بذر فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له ، حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ، ويرتفع شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل ، أكثر مما يمهده ، وما يفسده أكثر مما يصلحه .

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس ، بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ ، لا تحركه الدواهى والصواعق ، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء ، تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا] .

وإذا تكلم مع الفقهاء والأصوليين قال :

[وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأى والشرع : وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل ؛ فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول ، بحيث=

اعتقاده أدلة الاعتقاد ، ليؤكد الاعتقاد ويستمره ، ويحرسه من تشويش المبتدعة . ولا تنحل عقدة الاعتقاد إلى انشراح المعرفة .

فإن أردت أن تستنشق شيئاً من روائح المعرفة ، صادفت فيها مقداراً يسيراً . مبثوثاً فى كتاب الصبر ، والشكر ، وكتاب المحبة ، وباب التوحيد من أول كتاب التوكل ، وجملة ذلك من كتاب الإحياء .

وتصادف منها مقداراً صالحاً ، يعرفك كيفية قرع باب المعرفة ، فى كتاب « المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى » لا سيما فى الأسماء المشتقة من الأفعال .

وإن أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة ، من غير مجمجة ولا مراقبة ، فلا تصادفه إلا فى بعض كتبنا[1] المضنون بها على غير أهلها وإياك أن تغتر

لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبنى على محض التقليد ، الذى لا يشهد له العقل بالتسديد والتأييد ؛ ولأجل شرف علم الفقه وسببه ، وفر الله دواعى الخلق على طلبه ، وكان العلماء به أرفع العلماء مكاناً ، وأجلهم شأناً ، وأكثرهم أتباعاً وأعواناً] .

وإذا تكلم مع الصوفية ، بين أهمية ما يعانونه ، وعرض بالفقهاء فقال :

[وأغمض أنواع علوم المعاملة ، الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان ، وذلك فرض عين على كل عبد ، وقد أهمله الخلق ، واشتغلوا بأمور تستجر إليهم الوسواس ، وتسلط عليهم الشيطان ، وتنسيهم عداوته ، وطريق الاحتراز منه .

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الانسان عن نفسه ، بالإختلافات الواقعة بين الناس ، فى المذاهب والخصومات] .

وإذا تكلم مع المتصوفة مرة أخرى فضلهم على علماء الكلام فقال :

[نعم هذا التجلى وهذا الإيمان له ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : إيمان العوام ، وهو إيمان التقليد المحض .

المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

والمرتبة الثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين . . .]

وأحياناً وهو يفضل المتصوفة على علماء الكلام ، لا يترك كلمة علماء الكلام مطلقة ، بل ينص على أهل السنة فيقول :

[. . . . . والثالث وهم المخلطون ، وهم عامة أهل السنة ، تارة ينتبهون فيذكرون منة الله ، وتارة يغفلون فيعجبون لذلك ، لمكان الغفلة العارضة ، والفترة فى الاجتهاد ، والنقص فى البصيرة] .

ثم إنه أخذ من الفلسفة بحظ كبير أوضحناه فى الباب الثانى ، وقد اختص بهذه الفلسفة أناساً ذوى استعداد خاص ، فإذا تكلم عن الفلسفة مع غير أربابها عابها وشنع عليها .

وهذا يفسر لنا السر فى أن الغزالى عاب على علوم هو مؤلف فيها .

(١) هنا يعبر بالجمع ، وفى النص السابق عبر بالمفرد ، فلعله حينما ألف كتاب الجواهر ، لم يكن =

obeikandi.com

وتحدث نفسك بأهليته ، فتستهدف[١] للمشافهة بصريح الرد إلا أن تجمع ثلاث خصال :

الأولى : الاستقلال فى العلوم الظاهرة ، ونيل رتبة الإمامة فيها .

والثانية : انقلاع القلب عن الدنيا بالكلية ، بعد محو الأخلاق الذميمة ، حتى لا يبقى فيك تعطش ، إلا إلى الحق ، ولا اهتمام إلا به ، ولا شغل إلا فيه ، ولا تعريج إلا عليه .

والثالثة : أن يكون قد أتيح لك السعادة فى أصل الفطرة ، بقريحة صافية ، وفطنة بليغة ، لا تكل عن درك غوامض العلوم ، ومشكلاتها على سبيل البديهة والمبادرة ، فإن البليد إذا أتعب خاطره وأكدّ نفسه ، ربما أدرك بعض الغوامض أيضاً ، ولكن يدرك منها شيئاً يسيراً ، وفى مدة طويلة . فلن يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية ، إلا قلب صاف ، كأنه مرآة مجلوة . وإنما يصير كذلك بقوة الفطرة ، وصحة القصد ، ثم بإزالة كدورات الدنيا عن وجهه ، فإنه الرين والطبع ، الذى يمنع الله به القلوب عن معرفته ، وإن الله يحول بين المرء وقلبه] .

فهذا النص صريح فى أن الكتب المتداولة ، لا تحوى خالص الحقيقة ولا صريح المعرفة . وإنما وضعها الغزالى كذلك ، لأنه لو قدم إلى العامة خالص الحقيقة وصريح المعرفة ، لقدم إليهم ماتكل أفهامهم عن دركه ، ويستضرون به ، فيشافهون بصريح الرد والإنكار ، فيكون الغزالى هو الذى حملهم على إنكارها وردها ، ومن هنا قال : « إفشاء سر الربوبية كفر » ؛ أى لأن من كفر مسلماً فقد كفر . وقال : إن من البر ما يكون عقوقاً .

وهذه الكتب المتداولة يدرجها الغزالى فى عداد كتب علم الكلام ، ولعلم الكلام فى نظر الغزالى وظيفة خاصة ، لا يستطيع أن يؤدى غيرها . هى حفظ عقيدة العامة عن تشويش المبتدعة[٢] .

= ألف من هذه الكتب الخاصة إلا كتاباً واحداً ، وحينما ألف كتاب الأربعين كان قد ألف معه غيره .

(١) وهذا يفسر لنا السر فى إخفاء الغزالى هذه الكتب عن العامة ، وعن أكثر المشتغلين بالعلم .

(٢) ولقد كان السلف واقفين فى أمر العقائد ، عند حد يتناسب مع مستوى العامة . وكانوا يعلون بالدرة من تحدثه نفسه ، بمجاوزة هذا الحد ، فن تخطى هذا الحد ، الذى وقف عنده السلف مع العامة ، يعتبر – فى نظر الغزالى – مبتدعاً ، أما من جاوزه مع الخاصة فلا يسمى مبتدعاً .

فالآراء التى تشتمل عليها الكتب الكلامية ، سواء فى ذلك تأليف الغزالى أو تأليف غيره ، فى نظر الغزالى ، هى الحقيقة كما يفهمها العامة ، لا كما يفهمها

= فالابتداع فى نظر الغزالى هو الخروج مع العامة عن القدر الذى وقف عنده السلف « فإن العامى لو اشتغل بالمعاصى البدنية ، ربما كان أسلم له من أن يخوض فى البحث عن معرفة الله تعالى ، فإن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، و « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

[وفى معنى العوام الأديب والنحوى ، والمحدث والمفسر ، والفقيه والمتكلم ، بل كل عالم سوى المتجردين لعلم السباحة فى بحار المعرفة ، المعرضين عن المال والجاه والخلق ، وسائر اللذات ، المخلصين لله فى العلوم والأعمال ، العاملين بجميع حدود الشريعة وآدابها ، فى القيام بالطاعات وترك المنكرات ، المفرغين قلوبهم جملة من غير الله تعالى ، والمستحقرين للدنيا ، بل الآخرة والفردوس الأعلى ، فى جنب محبة الله تعالى ، فهؤلاء هم أهل الخوض فى بحر المعرفة ، وهم مع ذلك كله على خطر عظيم ، يهلك من العشرة تسعة ، إلى أن سعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون] .

وإذا كان هؤلاء جميعاً عوام فى نظر الغزالى ، وإذا كان اشتغال العامى بالمعاصى البدنية ، خيراً له من الاشتغال بمعرفة الله ؛ فإنها منحدر يهوى به إلى الشرك ، وإذا كان علم الكلام يقصد فيه حفظ عقيدة العوام عليهم ؛ فيجوز أن تكون تلك الأحكام الواردة فى كتب الغزالى الكلامية ، من أن اعتقاد كذا كفر ، واعتقاد كذا فسوق ، ليس على الإطلاق ، بل بالنسبة لهؤلاء فقط ، لأنها مما يشوش عليهم اعتقادهم .

وإذا كان الغزالى قد حكم بأن من أفشى سر الربوبية فقد كفر ، لأنه قدم هذه الأسرار لمن لا يحسن فهمها ، فليس بعيداً أن يحكم على هذه الأفكار نفسها بأنها كفر ، ليحول بينها وبين من لا يحسن فهمها .

فأحكام الغزالى الواردة فى كتبه الكلامية ، ومنها كتاب « التهافت » ، يجب أن يحتاط فى تطبيقها وفهمها .

قال : [البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف ، وعند هذا يتضح لك أن هنا مقامين :

ا — أحدهما مقام عوام الخلق ، والحق فيه الاتباع ، والكف عن تغيير الظواهر رأساً ، والحذر عن إبداء التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة ، وحسم باب السؤال رأساً ، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث ، واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة ، كما روى عن عمر رضى الله عنه ، أنه سأله سائل عن آيتين متعارضتين ، فعلاه بالدرة ، وكما روى عن مالك رحمه الله ، أنه سئل عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم والإيمان به واجب ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

ب — المقام الثانى ، بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية ، فينبغى أن يكون بحثهم بقدر الضرورة ، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع .

ولا ينبغى أن يكفر بعضهم بعضاً ، بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً ، فإن ذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك] .

فالخروج على الظواهر بمقتضى البرهان لا بأس به للخاصة ، ولا يسمى بدعة ، والحكم بالكفر من الخاصة على الخاصة ، لا يجوز ولا ينبغى ؛ لأنهم لا يختلفون إلا فى مسائل دقيقة ، ليس إدراك الحق فيها سهلا ولا هيناً .

الخاصة ، مضافاً إليها محاولات فكرية ، للدفاع عن هذه العقيدة ، خشية أن يشوشها على أصحابها مشوش .

والغزالى يرى أن كتابه « تهافت الفلاسفة » من جنس كتب علم الكلام فيقول[١] :

[ومن محاجة الكفار ومجادلتهم ، ينشعب علم الكلام ، المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون .

وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين ، سمينا الطبقة القريبة منها ، الرسالة القدسية ، والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » .

وغرض هذا العلم حراسة عقيدة العوام من تشويش المبتدعة ، ولا يكون هذا العلم مليئًا[٢] بكشف الحقائق ، وبجنسه[٣] يتعلق كتابنا الذى وضعناه فى تهافت الفلاسفة] .

فهذا النص يفيد أن كتاب تهافت الفلاسفة ، حاول به الغزالى أن يحفظ عقيدة العامة عن التشويش بأفكار أخرى تخالفها لا أكثر ؛ ضرورة أنه من جنس علم الكلام .

أما أن تكون تلك الأفكار باطلة فى ذاتها ، فهذا ما لا يفيده النص ، بل النص يفيد عكس ذلك ، إذ يصرح فيه : أن علم الكلام الذى من جنسه كتاب التهافت ، ليس مليـًا بكشف الحقائق ، وليس يلزم أن يكون ما يشوش على العامة باطلا فى ذاته ؛ بل لقد مر له فى نص الجواهر أن الحقيقة يكل عنها أكثر الأفهام ، ويستضر بها الضعفاء ، ومنهم أكثر المترسمين بالعلم .

نعم إنه كفر الفلاسفة ببعض ما جاء فيه ، ولكن لم لا يكون تكفيره إياهم من قبيل قوله . إن إفشاء سر الربوبية كفر ؟ !

وإذا صح أن هذا حال كتب الغزالى الكلامية بعامة ، وحال كتاب التهافت

---

(١) ص ٢١ من جواهر القرآن .

(٢) سياق الكلام يدل على أنها « معنيا » أو « مليئاً » .

(٣) وإنما قال بجنسه ، لأن الشأن فى كتب الكلام أن تقوم بعملين : عمل إيجابى ، هو إثبات العقيدة الحقة فى نظر أصحابها . وعمل سلبى هو هدم عقيدة المخالف .

والتهافت لم يقم إلا بالعمل السلبى فقط .

بخاصة ، فليس من المنطق فى شىء ، أن يجعل نقطة ارتكاز تدور حوله الأبحاث المتعلقة بالغزالى ، فيقبل من الكتب والأفكار مايقبل ؛ لأنه يوافق ماجاء فى كتاب التهافت ، ويرفض من الكتب والأفكار مايرفض ؛ لأنه يخالف ماجاء فى التهافت (١).

فنحسب من المغالاة ، أن يعمد الباحث إلى هذا الكتاب ، ويجعله قطب الرحى فى البحث ، ويروح يرفض كل كتاب يحمل أفكاراً تخالف ما جاء فيه ، كما فعل ابن الصلاح ، بإزاء كتاب المضنون به [لأنه اشتمل على القول بقدم العالم ، وعدم علم الله بالجزئيات ، وعدم زيادة الصفات ، ولأن هذه المسائل الثلاث يكفر الغزالى قائلها — أى فى كتابه التهافت — هو وأهل السنة أجمعون] .

على أنى رجعت إلى الكتاب ، فلم أجد فيه شيئاً من ذلك . اللهم إلا بعض عبارات ربما تشعر بقدم العالم ، حيث جعل الله تعالى فاعلاً بالإيجاب ، وذلك حيث يقول (٢) :

---

(١) وقد اجتمع على كتاب التهافت أمور :

ا — أن الغزالى ألفه حين كان يطلب الجاه والشهرة وبعد الصيت ، فكان يناصر المذهب الذى يجلب عليه كل ذلك ، لا المذهب الذى يراه حقاً فى ذاته .

ب — أن الغزالى ألفه أيام كان شاكا فى الحقيقة ، فلم تكن تآليفه — فى تلك الفترة — تصور مذهبه الخاص ، الصحيح فى نظره ، وإنما كانت تصور مذهبه الرسمى الذى يتعصب له .

جـ — أن الغزالى أدرجه فى عداد كتب علم الكلام ، ثم حكم على هذا العلم ، بأنه ليس معنياً بالكشف عن الحقيقة ، وإنما ذلك مهمة الكتب المضنون بها .

فهل بعد هذا يحق لابن الصلاح أو لغيره أن يتخذ كتاب التهافت محوراً تدور حوله الأبحاث المتعلقة بالغزالى ، فيرفضون الكتب ويطعنون فى نسبتها إلى الغزالى ؛ لأنها لا تلتئم مع كتاب التهافت .

وأيضاً يستنبطون منه عقيدة الغزالى .

لا شك أن هذه الخطة مجافية للصواب ، فيما أعتقد .

غير أنه ينبغى أن يلاحظ أن للغزالى بالنسبة لكتاب التهافت نظرتين :

إحداهما ، نظرة إلى المنهج ، الذى عول عليه الفلاسفة فى مسائل ما وراء الطبيعة ، وهو التعويل على العقل المحض .

والثانية ، نظرته إلى نفس المسائل التى وردت فى الكتاب .

أما النظرة الأولى ، فيقف الغزالى منها موقفاً صريحاً ثابتاً ؛ لأنه لا يرى هذا المنهج صواباً ، لذلك لم يأخذ به ، وإنما أخذ بنظرية الكشف الصوفية .

وأما النظرة الثانية ، فهى نظرة غير صريحة ولا ثابتة ، لأنه أخذ ببعض هذه المسائل ، كما يتضح فى الفصل الخاص بفلسفته .

(٢) ص ٤ .

[فصل :

الرزق مضمون ، وهو من المعقولات ، لا من المنقولات ؛ لأن الحق تعالى عقل ذاته ، وما توجبه ذاته ، فهوقد عقل جميع الموجودات ، وإن كان بالقصد الثانى . وإنما يجب وجود كل واحد منها : أعنى من الموجودات المبدعات ، على ما وجد ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعقل وجود الكل من ذاته ، فكما أن تعقله ذاته لا يجوز أن يتغير ، كذلك تعقله لكل ما توجبه ذاته ، ولكل ما يعقل وجوده من ذاته ، لا يتغير بل يجب وجود كل ذلك ... إلخ] .

أما المسألتان الأخريان، فليس عنهما فى الكتاب حديث أصلاً . وليس يبعد ان يكون ابن الصلاح لم يطلع على الكتاب بنفسه ، بل عول على ما أحيط به الكتاب من إشاعات ؛ ونحن نعلم مدى ما فى الإشاعات من مفتريات .

وإذا كان ابن الصلاح قد حدثنا عن كتاب التهافت ، وهو لم يقرأه ، فليس بعيداً أن يحدثنا عن كتاب المضنون به أيضاً دون أن يقرأه .

ولقد استغل الدكتور زكى مبارك ، موقف ابن الصلاح من كتاب المضنون وأبدى احتمالا قائلاً [١] : إن كتاب المضنون الذى بأيدينا اليوم ، ليس هو كتاب المضنون الذى كان بيد ابن الصلاح ؛ لأن الكتاب الذى بأيدينا ، غير مشتمل على شىء من المسائل التى ذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون مشتمل عليها] .

ولكن هذا الاحتمال يكون مقبولاً ، لو لم نقف من ابن الصلاح موقف الاتهام ؛ وإذ قد ثبت لدينا أنه غير ثقة فى معرفة كتب الغزالى ؛ لأنه حدث عن كتاب التهافت ، فبرهن لنا أن حديثه عنه حديث من سمع لا من قرأ ، فلنا إذن أن نشك فى حديثه عن كتاب المضنون ؛ لاحتمال أن يكون حديثه عنه أيضاً ، حديث من سمع لا من قرأ . وإذن فلا يكون لدينا وسيلة الجزم ، بأن الكتاب الذى بأيدينا غير الكتاب الذى كان فى زمن ابن الصلاح .

وليس تعويل ابن الصلاح فى الحكم على كتب الغزالى على السماع ، بدعاً فى بابه : فلقد حدثنا المارزى عن الغزالى حديثاً ، أوجعه فيه نقداً وتقريعاً [٢] فى وثوق

(١) كتاب الأخلاق عند الغزالى له ص ١٢٠ .

(٢) الطبقات الكبرى للشافعية جـ ٤ ص ١٣٢ .

obeikandl.com

ويقين ، لا يشك معهما القارئ أن المارزى بحث ومحص ، وفتش فى الكتب ، وقابل بين المسائل . لولا أن المارزى نفسه يصارحنا بأنه لم يرجع فما حكى ونقد إلى شيء من كتب الغزالى وإنما عول على ما بلغه من الأخبار .

والغزالى من الأشخاص الذين حار فيهم أهل زمنهم . فبين معجب يرفعه إلى درجة أنبياء بنى إسرائيل ، وبين قادح يرميه بالمروق والإلحاد[١] .

فشخص يتردد أمره بين هذه المتناقضات ، ويقوم حوله النزاع واللجاج ؛ يكون من الخطأ التعويل فى دراسته على السماع ؛ لأنه لا يخلو من تفريط أو إفراط . والدكتور زكى يعنى أن الكتاب الذى بأيدينا ليس للغزالى ، والكتاب الذى كان فى زمن ابن الصلاح هو للغزالى .

وما دام افتراض أن هناك كتابين لم يسلم ولم يصح ، وما دام الدكتور يرى أن الكتاب الذى كان فى زمن ابن الصلاح هو للغزالى ، فيرجح أن يكون الكتاب الذى بأيدينا هو للغزالى .

أما الدكتور العنانى ، فهو أيضاً يرى أن الكتاب الذى بأيدينا ليس للغزالى ؛ بحجة أنه غير مشتمل على كثير من الآراء الفلسفية ، التى تتناسب مع اسم « المضنون به على غير أهله » .

والدكتور لم يبين لنا رأيه ، فى أن الكتاب الذى بأيدينا ، هو الذى كان فى زمن ابن الصلاح ، فيكون موافقاً لابن الصلاح فى رد الكتاب ، وإن تعارضت وجهات النظر : فذلك يرده لأن فيه آراء فلسفية ، وهذا يرده لأنه غير متخم بالآراء الفلسفية .

أم أنه غيره ، وأن الذى كان فى زمن ابن الصلاح هو للغزالى ، والذى بأيدينا ليس له كما فعل الدكتور زكى .

وهذا نص عبارته[٢] :

[إنه يبعد أن يكون كتاب المضنون به على غير أهله ، هو ما بأيدى الناس ،

---

(١) كالمارزى وأبى الوليد الطرشوشى وغيرهم ، انظر الطبقات الكبرى ج ٤ ص ١٣٢ ، وقال مكدونالد : « وقد صادف فى حياته – يعنى الغزالى – مرارة الاضطهاد كملحد هرطوق » كتاب زويمر ص ٩

(٢) نقلا عن كتاب الدكتور زكى مبارك « الأخلاق عند الغزالى » ص ١٢٠ .

obeikandi.com

لأن هذا الكتيب الضعيف ، لايدل على المعنى الذى قصده الغزالى من المضنون به على غير أهله .

والراجح أن يكون المضنون به ، كتاباً ضخماً ، يشمل آراء الغزالى الفلسفية التى يضن بنشرها على الجمهور] .

والدكتور مصيب جداً ، فى انتظاره من الغزالى أفكاراً فلسفية هامة ، بالرغم من تأليف الغزالى فى علم الكلام ، وبالرغم من تأليفه ضد الفلسفة .

على العكس من ابن الصلاح الذى تصور الغزالى أشعرياً متعصباً ، عدواً لدوداً للفلسفة والآراء الفلسفية .

وغير مصيب فى انتظاره من الغزالى أن يضع كل أفكاره الفلسفية المضنون بها على غير أهلها ، فى كتاب واحد .

إن الغزالى وعد بكتب كثيرة — لا بكتاب واحد — تكون مشتملة على أفكاره الفلسفية ، ووصف جميع تلك الكتب بأنها « مضنون بها على غير هلها » فهو أقرب إلى أن يكون وصفاً عاماً ، من أن يكون اسماً لكتاب واحد .

ولربما كان للغزالى فى توزيعه آراءه الفلسفية على جملة كتب ، وجهة نظر موفقة . فما دام يريد إخفاء هذه الآراء ، وعدم ذيوعها ، ففى توزيعها على عدة كتب عون له على هذا الإخفاء ، حتى إذا ظفر ظافر بكتاب لم يجد فيه إلا بعض ما أخفاه الغزالى ، لا كل ما أخفاه وهذا تصرف حسن من غير شك .

فإذا جاء الغزالى ، وسمى الحلقة الأولى لهذه السلسلة بالوصف الشامل لجميعها ، لم يلزم من ذلك وجوب اشتمالها على كل الآراء المعدة لجمعيها . ويكفى أن يكون فيها بعض تلك الآراء ، وقد سبق أن ذكرنا ما فيه من الإشارة إلى قدم العالم ، وسيأتى نذكر ما فيه من الإشارة إلى عدم البعث الجسمانى ، وفيه أيضاً وراء ذلك أفكار لها خطرها .

ويكفى أن يكون الغزالى وعد فى آخره بمتابعة التأليف ، وصرح بأن الكتاب لم يحو كل ما لديه من أفكار فلسفية .

فلم يصبح إذن وجه لطعن الدكتور العنانى فى الكتاب .

* * *

الآن وقد ناقشنا كل الآراء التى طعنت فى الكتاب ، وفندناها بما يردها على أصحابها ، يبقى الكتاب على أصله من نسبته إلى الغزالى .

والذى يقرأ هذا الكتاب، بعد أن يكون قد أكثر من القراءة فى كتب الغزالى، حتى عرف روح المؤلف وأسلوبه، والأمثلة والشواهد التى يكثر دورانها على لسانه؛ يخالطه شعور قوى بأن الكتاب للغزالى.

تقرأ هذا الكتاب، فتجد الشواهد من الآيات والأحاديث التى رددها الغزالى فى كتبه، مرددة فيه؛ وتجد العبارات التى يكثر الغزالى من استعمالها، كقوله: هذه المسألة مما يساعد فيها الوهم العقل. مستعملة فيه.

وتجد الأمثال التى يذكرها الغزالى فى كتبه الأخرى مذكورة فيه.

فمثال الأعمى، الذى أخذ ينتقد نظام وضع الأثاث، فى بيت جماعة أضافوه مذكور فيه[1]، وهو مذكور فى الأحياء فى مواضع عديدة.

وكذلك إنكاره قول المتكلمين، إن الله لايحب ولا يحب مذكور فيه[2]، ومذكور فى الأربعين فى أصول الدين[3].

وفيه أيضاً يردد المعنى الذى ذكره فى كل كتبه وهو من عرف نفسه، عرف ربه؛ ودعوى أنها فى شريعتنا حديث، وفى شريعة الأمم السابقة وحى منزل[4].

وفيه يتردد فى أمر الجزء الذى لا يتجزأ، ويقول إن الأدلة فيه متعادلة[5]. وهذا بالضبط حصل منه فى التهافت[6].

والمعنى الذى ذكره فى كتابه «المنقذ من الضلال» من أن الأنبياء أطباء القلوب، وأن المعاصى سموم مهلكة، وأن الطاعات أدوية المعاصى موجود فيه[7].

والمعنى الذى فى كتابه المقصد الأسنى، وأشرنا إليه فيما سبق: من أن العقل قد يعجز عن إدراك بعض مسائل ما وراء الطبيعة ولكنه لا يحيلها، مذكور فيه[8].

---

(١) ص ١٧ .
(٢) ص ٩ .
(٣) ص ٢٥٠ .
(٤) ص ١٢ .
(٥) ص ٢٣ .
(٦) ص ٢٤٩ ، ٢٥٤ .
(٧) ص ١٤ و ١٥ .
(٨) ص ١٨ .

والمثال الذى ردده كثيراً فى كتبه من أن الإنسان يستغرب ما لم يعهده ، حتى لو حدثه أحد ، أنه لو حك خشبة بخشبة ، لخرج منها شىء أحمر ، بمقدار عدسة ، يأكل هذه البلدة وأهلها ، ولم يكن رأى النار قط ، لاستغرب ذلك وأنكره ، موجود [١] فيه.

والمعنى الذى ذكره فى المنقذ ، من أن الطب والنجوم والصناعات فى أصلها إلهام من الله ، موجود فيه [٢].

والمثال المردد كثيراً فى كتب الغزالى : من أنه لو أخبر إنسان بأن ماء يوضع فى الرحم فيتطور إلى علقة فمضغة ، ثم يصير عظاماً ، ثم يكتسى لحماً ، ثم يصبح كائناً حياً مستقلا له فكر وإرادة ، ولم يكن رأى خلقة الحيوان قط ، لاستغرب ذلك وأنكره ، موجود فيه [٣].

هذا وما قصدت الاستقصاء ، بل هنالك أشياء أخرى كثيرة تربطه بكتب الغزالى ، وتوجد بينه وبينها شبهاً قوياً .

وليس المهم هو اشتراك كتاب المضنون به ، مع كتب الغزالى الأخرى فى هذه الأفكار ، فقط ، فأحياناً يشترك كتابان لمؤلفين مختلفين فى عدد هذه المسائل ، وفى أكثر منها ، ولكن المهم ، فى أن الروح العامة المسيطرة على الأفكار ، وطريقة العرض والمناسبة التى يساق من أجلها الشاهد أو المثال .

كل هذه هى التى تخلق فى نفس القارئ شعوراً قوياً ، بأن هذا الكتاب للغزالى ، وما راءٍ كمن سمع .

ومن غريب أمر ابن الصلاح . أنه وضع نصب عينيه كتاب التهافت ، واتخذه الأساس لفهم الغزالى ، وغض النظر — ولعله لم يطلع — عن التصريحات التى اقتبسناها من كتاب جواهر القرآن ، وكتاب الأربعين ، التى تفيد أن للغزالى كتباً أخرى تحوى خالص الحقيقة ولباب المعرفة ، وأنها تخالف ما فى كتبه الدارجة المشهورة .

أعتقد أن هذه التصريحات تعد ذهن القارئ المطلع عليها ، لتلقى غرائب

---

(١) ص ١٩ .
(٢) ص ٢١ .
(٣) ص ٣٥ .

الكتب ، وقبول نسبتها إلى الغزالى ، وتكون هذا الغرابة هى بعض الدليل على صحة نسبتها إلى الغزالى ، لا نفس الدليل على ردها والطعن فيها .

لكن الواقع أن كتاب التهافت وشهرة الغزالى بأنه أشعرى سنى هما اللذان حتما على ابن الصلاح هذا الموقف .

ولو أن ابن الصلاح درس وفتش ، لعرف من الغزالى نفسه قيمة كتاب التهافت ، ولعرف بعد ذلك أن التهافت لا يقف حجر عثرة . يمنع من قبول هذه الكتب .

وشبيه كل الشبه بموقف ابن الصلاح من كتاب المضنون به ، موقف فضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى : من كتاب « معارج القدس » ، فقد رد أيضاً هذا الكتاب لاعتبار الغزالى سنياً مؤلفاً ضد الفلسفة ، أو على الأصح شك فيه قال[١] :

[إننا كثيراً ما أعربنا عن شكنا فى نسبة كتاب « معارج القدس » للغزالى ، وإن كنا نجده مذكوراً فى ثبت الكتب صحيحة النسبة إليه ، وليس شكنا لما فيه من النقل الحرفى عن ابن سينا ، بل لاشتماله على غير قليل من الآراء التى نقمها على الفلاسفة ، ورماهم من أجلها بالابتداع ، إن لم يكن بأكثر من الابتداع] .

ولقد مر بنا فى فصل الملاحظات على كتب الغزالى ، ما بين هذا الكتاب وبين كتب الغزالى الأخرى كالإحياء ، وميزان العمل ، والاقتصاد فى الاعتقاد ، من شبه قوى ، حتى إن الفصل بتمامه وعنوانه مذكور هنا وهناك .

وحظ كتاب المعارج من هذا أعظم بكثير جداً ، من حظ كتاب المضنون به : ومع ذلك فإننا نستطيع أن نزيد :

أولا — أن الغزالى أكثر فى كتبه من قول : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » وبالغ فى قيمة هذه العبارة ، حتى جعلها مرة حديثاً ، ومرة آية من الكتب السابقة ، ولقد حاولت أن أحصى مرات تردادها فى كتبه فلم أستطع .

وراح الغزالى يبالغ فى أمر معرفة النفس حتى قال : « من جهل نفسه جهل ربه » . والجهل بالرب — فى نظر الغزالى — عظيم الخطر ، كبير الأثر .

---

(١) كتابه الأخلاق الإسلامية وصلتها بالفلسفة الإغريقية ص ١٥٦ .

وفى هذا يقول الغزالى(١) : [قيل : كان فى كتب الله المنزلة ، اعرف نفسك يا إنسان ، تعرف ربك . وقال عليه السلام : « أعرفكم بنفسه ، أعرفكم بربه » ، وقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » تنبيهاً على تلازم الأمرين ، وأن نسيان أحدهما نسيان للآخر ، ولذلك قال الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » . وقال تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ». وما أراد ظاهر الجسد ، فإن ذلك تبصره البهائم ، فضلاً عن الناس ، وبالتالى من جهل نفسه فهو بغيره أجهل] .

ويقول(٢) : [المعراج الثانى :

وهو لتقرير النفس وهل هى باقية أم لا ؟! وهذا المعراج كالقطب لسائر العلوم ، وله يجتهد المجتهدون ، ويعمل العاملون ، ولا فائدة أعظم منه ، فإن نبوة الأنبياء ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وأنباء الدنيا والآخرة المأخوذة عن الرسل ، لا تثبت متى بطلت هذه المسألة ، فإن النفس إذا لم يكن لها بقاء ، فجميع ما أخبرنا به وأطمعنا فيه باطل ، وبحسب ما نثق من هذه المسألة نجتهد ، وبحسب ما يغيب عنا ننظر .

وعلى هذا المعراج يدور الناس ، فهو أس العلوم ، وإذا اضمحل فلا ثابت ولذلك لم تبينه الرسل ، لأن كلام غيرهم بين أن يقبل أو يرد ، أو يصدق أو يكذب .

وكلام الرسل عليهم السلام ، ليس كذلك ، فإن المسألة فى نهاية الغموض والأذهان أكثرها ضعيفة ، فربما لم تفهم مقاصدهم ، فيعترض من قولهم على قولهم . فلم يوردوا فيها إلا إشارات ورموزاً ، وفى القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » . . .]

فهذه المسألة التى يراها « الغزالى » مفتاح العلوم ، وأس المعرفة ، وطريق معرفة الله تعالى ، التى لها يعمل ولها يدعو ، ويجعلها السعادة الحقة ، التى كل سعادة بالقياس إليها عدم ، ألا تستحق من الغزالى ، وهو الرجل المكثر ، طويل

---

(١) ميزان العمل ص ٢٣ .

(٢) ص ٢٣ من معراج السالكين .

النفس فى التأليف ، الذى يُسأل السؤال ، فيفيض فى الجواب ، حتى يكون كتاباً ؛ أن يؤلف فيها كتاباً ، يكون للخاصة ، لا للعامة الذين امتنع الشرع عن أن يخوض معهم فيها ، يبين فيه حقيقة النفس ، وبدايتها ، ونهايتها ، ويتدرج منه إلى معرفة العالم ، ومعرفة الله ، كما ادعى أن معرفتها أساس العلوم ، ومفتاح معرفة الله ؟ !

فإذا رأى الإنسان بعد هذه التصريحات كتاباً عليه اسم الغزالى ، يعالج بحث النفس على هذا النحو ، ويقول صاحبه فى مقدمته :

[وينبغى لكل عاقل : أن يكون الله سبحانه وتعالى ، أول كل فكر له وآخره ، وباطن كل اعتبار وظاهره ، فتكون عين نفسه مكحولة بالنظر إليه ، وقلمه موقوفة على المثول بين يديه ، مسافراً بعقله فى الملكوت الأعلى ، وما فيه من آيات ربه الكبرى . فإذا انحط إلى قراره ، فليره ، فى آثاره ، فإنه باطن ظاهر ، تجلى لكل شىء بكل شىء .

وأظهر الآثار التى يرى فيها جلال ذات الحق ، وكمال صفاته ، إنما هو معرفة النفس ، كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ، « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال عليه الصلاة والسلام : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » .

ونحن نعرج فى هذا الكتاب ، من مدارج معرفة النفس ، إلى معرفة الحق جل جلاله ، ونذكر ما تؤدى إليه البراهين ، من حال النفس الإنسانية ، ولباب ما وقف عليه البحث الشافى من أمرها ، وكونها منزهة عن صفات الأجسام ، ومعرفة قواها وجنودها ، ومعرفة حدوثها وبقائها ، وسعادتها وشقاوتها بعد المفارقة ، على وجه يكشف الغطاء ، ويرفع الحجاب ، ويدل على الأسرار المخزونة ، والعلوم المكنونة ، المضنون بها على غير أهلها .

ثم إذا ختمنا فصول معرفة النفس ، فحينئذ نتعطف على معرفة الحق ، جل جلاله ، إذ جميع العلوم مقدمات ووسائل ، لمعرفة الأول الحق جل جلاله ، وكل ما يراد لشىء ، فدون حصول مقصوده يكون ضائعاً .

فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعرف صفاته وأفعاله ، وعرف مراتب

obeikandl.com

العالم ، مبدعاته ومكنوناته ، وعرف الملائكة ومراتبهم ، وعرف لمة الملك ، ولمة الشيطان ، والتوفيق والخذلان ، وعرف الرسالة والنبوة ، وكيفية الوحى ، وكيفية المعجزات ، والإخبار عن المغيبات ، وعرف الدار الآخرة ، وسعادتها وشقاوتها وأقسامها ، ولذة البهجة فيها ، وعرف غاية السعادة التى هى لقاء الله تعالى] .

ثم وجده قد وفى بما وعد ، فى تلك المقدمة ، فاتخذ من شرحه للنفس ، نموذجاً لشرحه للذات الأقدس . فقال فيما قال[١] :

« وكما أن النفس واحدة ولها قوى ، وإشرافها على البدن والروح الحيوانى يفعل فى كل موضع فعلا آخر ، لاختلاف القوى : فى موضع الإبصار ، وفى موضع السمع ، وفى موضع الحس المشترك . وفى موضع التخيل والتوهم ، وغير ذلك .

فكذلك أمر الأول الحق جل جلاله . بالنسبة إلى وجود العقل إبداع ، وبالنسبة إلى وجوده فى دوامه تكميل بالفعل . وبالنسبة إلى النفس تتميم وتوجيه من القوة إلى الفعل ، وبالنسبة إلى الطبيعة تحريك ، وبالنسبة إلى الأجسام تعريف ، وبالنسبة إلى الطبائع والعناصر تعديل . وبالنسبة إلى المركبات تصوير ، وبالنسبة إلى المصورات إحياء ، وبالنسبة إلى الحيوان إحساس وهداية ، وبالنسبة إلى العقل الإنسانى تكليف وتعريف ، وبالنسبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أمر وكلام وكلمات وقول وكتاب ورسالات] .

واتخذ من شرحه للجسم ونظامه نموذجاً لشرحه للعالم ، فقال بين ما قال[٢] :

[ومن استقرأ أفعال الله تعالى ، وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض ، بواسطة تحريك السموات والكواكب ، وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات ؛ علم أن تصرف الآدمى فى عالمه : أعنى بدنه ، يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر ، وهو مثله . وانكشف له أن نسبة شكل القلب إلى تصرفه ، نسبة العرش ؛ ونسبة القلب إلى الدماغ نسبة العرش إلى الكرسى ؛ وأن الحواس كالملائكة الذين يطيعون طبعاً ، ولا يستطيعون لأمره خلافاً ؛ والأعصاب كالسماوات ؛ والقدرة

---

(١) ص ٢٠٤ .

(٢) ص ١٩٨ .

فى الإصبع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الأجسام ؛ والمواد كالعناصر التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتفريق والتركيب والتمزيج ؛ وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ .

فهما اطلع بالحقيقة على هذه المرازنة ، عرف كيفية ترتيب أفعال الله تعالى فى الملك والملكوت] .

أقول : إذ رأى الإنسان — بعد هذه التصريحات التى ذكرها الغزالى ، حول النفس فى كتابيه ميزان العمل ، ومعراج السالكين — كتاباً عليه اسم الغزالى ، يعالج بحث النفس على هذا النحو ، فهو أقرب إلى أن يقبله منسوباً إليه ، من أن يرده ويطعن فى نسبته ، فإن بيان أهمية المسألة على هذا النحو الذى شرحه فى كتابيه « ميزان العمل » و « معراج السالكين » ، شبه وعد من الغزالى ، بأنه سوف يقدم لقرائه الخصوصيين ، صريح القول فيها .

أما اشتمال الكتاب على أمور تتنافى مع ما فى الكتب الأخرى ، فهو أيضاً مدعاة لقبوله لا لرده : كما فعل فضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف ؛ لأن الغزالى ، صرح لنا فى كتابيه جواهر القرآن ، والأربعين فى أصول الدين : أن له كتباً يخالف ما جاء فيها ، ما فى الكتب الأخرى ، فماذا ننتظر بعد هذا ؟ وماذا كان يمكن أن يعمله الغزالى أكثر من ذلك لنقبل كتابيه « معارج القدس » و « المضنون به » ولا نشك فيهما ؟ ! .

ثانياً : أن « الغزالى » وعد وعداً صريحاً ، بدراسة النفس دراسة مؤيدة بالمنطق والبرهان ، وكتاب « معارج القدس » يدرس النفس بهذه الطريقة ، فلم لا يكون هو الكتاب الموعود به .

وهذا هو الوعد ، قال[1] فى معرض الكلام على النفس ، وأنها لا جوهر ، ولا عرض :

[فإن قيل لا يعقل فى العقل ، إلا جوهر أو عرض ، وأما جوهر ثالث فلا يدرى :

قلنا هذا الآن سخف ، بل ليس فى العقل حصر يدل على ذلك ، وإنما

---

(١) ص ٣٤ من معراج السالكين .

أوجب تلك القسمة المشاهدة ،من حيث لم نشاهد إلا جوهراً أو عرضاً ، وهذا قياس التمثيل ، وسنعد كتاباً لتقرير البراهين ، إن ساعدت الأقدار بحول الله] .

ثالثاً : أن الغزالى يذكر فى كتابه « جواهر القرآن » شروطاً دقيقة يتحتم توافرها فى من يقدم على قراءة كتبه الخاصة ، التى يضن بنشرها على الجمهور .

وصاحب كتاب معارج القدس ، يشترط فى قارئ كتابه نفس الشروط بنفس العبارات فى الغالب ، فيقول فى المقدمة :

[ومن لم يؤهل للجولان فى هذا الميدان — يشير إلى معرفة الإله والعالم عن طريق معرفة النفس — والتطواف فى متنزهات هذا البستان ، فليس بيده إلا القشر ، يأكل كما تأكل الأنعام .

وشرح هذا السفر ، وبيان هذا العلم العظيم القدر ، لا يمكن فى أوراق ، وأطباق ، ويقصر عن شرح عجائبه العبارات والأقلام .

ونحن بعون الله تعالى وتوفيقه ، نشير إلى كل واحدة من هذه الجمل ، على وجه يستقل به المتفطن ، وأما الجامد البليد ، الذى يأخذ العلم بالتقليد ، فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد ، إذ كل ميسر لما خلق له .

فمن رشح للسعادة ، وشارف نيل الإرادة ، وأعطى أولا كمال الدرك ، من وفور العقل ، وصفاء الذهن ، وصحة الغريزة ، واتقاد القريحة ، وحدة الخاطر ، وجودة الذكاء والفطنة ، وجزالة الردى ، وحسن الفهم .

وهذه تحفة من الله ، وهدية لا تنال بيد الاكتساب ، وتنبتر دونها وسائل الأسباب .

ومن وهبت له هذه الفطنة ، فحينئذ عليه استكداد الفهم ، والاقتراح على القريحة ، واستعمال الفكر . واستثمار العقل ، بتحديق بصيرته ، إلى صوب الغوامض ، وحل المشكلات بطول التأمل ، وإمعان النظر ، والاستعانة بالخلوة وفراغ البال ، والاعتزال عن مزدحم الأشغال ، والقيام بوظائف العبادات ، حتى يصل إلى كمال العلوم] .

وهذا وجه شبه كبير وصلة عظيمة ، تربط « الغزالى » بالكتاب .

رابعاً : أن كتاب « معارج القدس » مذكور فى خطاب تقدم به أحد تلامذة الإمام الغزالى إليه . يطلب منه فيه أن ينصحه بما يراه نافعاً فى الآخرة .

ويقول التلميذ لشيخه فى هذا الخطاب : إن كتبك كذا وكذا — ويذكر له طائفة منها— يمكن أن تؤخذ منها النصيحة المطلوبة . ولكن ربما شق علىّ استخراجها من بين هذه الكتب فأرجو أن توجه إلىّ نصحاً خاصاً .

والمهم أن التلميذ ذكر كتاب « معارج القدس » بين كتب الإمام التى ذكر أن النصيحة يمكن أن تؤخذ منها .

وهذا فى نظرى دليل قوى ، على صحة نسبة الكتاب إلى « الغزالى » .

وهذا هو نص الخطاب ، وهو مذكور فى مقدمة كتاب « خلاصة التصانيف» للغزالى ، الذى هو الإجابة عن سؤال التلميذ .

[مولاى .

إن كان الطريق إلى جوابى مدوناً فى كتبك العديدة ، كإحياء العلوم ، وكيمياء السعادة ، وجواهر القرن ، وميزان العمل ، والقسطاس المستقيم ، ومعراج القدس[١] ، ومناهج العابدين ، وأمثالها ؛ فإن خادمك ضعيف كليل الطرف ، عن المطالعة فيها ؛ فأطلب من سيدى وأستاذى ، مختصراً أقرؤه كل يوم وأعمل بما فيه إلخ . . .]

وقد أجابه « الغزالى » بجواب هو خلاصة التصانيف المذكور .

— فبعد هذا لا يمكننى أن أساير المؤرخين الذين يروحون يضربون رؤوس هذه الكتب بعضها ببعض ، فإذا رأوا « الغزالى » يقرر فى كتابه « الاقتصاد فى الاعتقاد » أن الميزان الذى تزن به أعمال الناس يوم القيامة ، جسم .

لأن « الغزالى » ساق القول فى كتاب « الاقتصاد » على مذهب المتكلمين الأشاعرة ، وهم يرون القول بجسمية الميزان وذلك حيث يقول[٢] :

[فإن قيل : كيف توزن الأعمال ، وهى أعراض وقد انعدمت ، والمعدوم لا يوزن ، وإن قدرت إعادتها وخلقها فى جسم الميزان كان محالا ، لاستحالة

(١) ليس للغزالى كتاب بهذا الاسم وإنما له «معراج السالكين» وبعيد أن يكون ما فى الخطاب تحريفاً عنه ، فالظن القوى أنه تحريف عن معارج القدس .

(٢) ص ٩٨ .

إعادة الأعراض ! ! !

ثم كيف تخلق حركة يد الإنسان وهى طاعته ، فى جسم الميزان ؟ أيتحرك بها الميزان ؟ ! فيكون ذلك حركة الميزان ، لا حركة يد الإنسان ، أم لا يتحرك ؟ ! فتكون الحركة قد قامت بجسم ، ليس هو متحركاً بها ، وهو محال .

ثم إن تحرك ، فيتفاوت ميل الميزان ، بقدر طول الحركات وكثرتها ، لا بقدر مرات الأجور ، فرب حركة بجزء من البدن ، يزيد أثمها على حركة جميع البدن فراسخ ، فهذا محال .

فنقول : قد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : توزن صحائف الأعمال ، فإن الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال فى صحائف ، فإذا وضعت فى الميزان ، خلق الله تعالى فى كفتها ميلا ، بقدر رتبة الطاعة وهو على ما يشاء قدير] .

راحوا يضربون به رأس القسطاس المستقيم » الذى يقرر أن ميزان الأعمال يوم القيامة روحى صرف ؛ لأن « الغزالى » ساق فيه القول على لسان أهل البرهان . وذلك حيث يقول(١) :

« وأشد الموازين روحانية ، ميزان يوم القيامة ؛ إذ به توزن أعمال العباد ومعارفهم ، والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام ، ولذلك كان ميزانهما روحياً صرفاً] .

فما دام « الغزالى » يكتب لطوائف مختلفة ، يناسب كل واحدة منها لون خاص من ألوان الحقيقة ؛ تكون محاولة إثبات التناقض ، بين كتابين ، كل واحد منهما قدم لطبقة خاصة ، عملا ليس له ما يبرره .

ولقد كان بن طفيل دقيقاً جداً ، حينما حاول إلزام الغزالى بأنه متناقض ، يربط فى موضع ، ما يحل فى آخر .

إذ أنه — أى ابن طفيل — عمد إلى كتب طائفة واحدة ، هى الجمهور — كما صرح بذلك فى النص الذى اقتبسناه سابقاً (٢) — وحاول إيجاد طرفين متناقضين منها .

---

(١) ص ٢٨ .

(٢) ص ٧٧ .

الطرف الأول هو كتاب « التهافت » ، حيث صرح فيه بإنكار القول بعدم حشر الأجساد .

وأما الطرف الآخر ، فهو كتاب « المنقذ من الضلال » و « ميزان العمل » ، إذ صاغ من نصين فيهما قياساً ، أنتج – فيما يعتقد ابن طفيل – قول الغزالى : بعدم حشر الأجساد .

نعم إنه يعجبنى من الفيلسوف الأندلسى ، منهجه فى النقد ، وإثبات التناقض . فلم يحاوله بين كتب قدمت لطوائف مختلفة – كما صنع ابن الصلاح والأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى – وإن كانت دعوى التناقض لم تسلم لابن طفيل ، كما سبق التحقيق ، ولكن هذا لا يمنع من الإعجاب بالمنهج .

ويعجبنى أيضاً من الفيلسوف الأندلسى ، تنبهه إلى أن كتاب « التهافت » قدمه « الغزالى » إلى الجمهور لا إلى الخاصة ، حيث جعله طرفاً فى التعارض الموجود فى كتب العامة .

فلا يمكن أن نحاسب « الغزالى » على ما جاء فيه ، على أساس أنه يدين به ويراه خالص الحقيقة وصريح المعرفة .

ولا أن نساير المؤرخين الذين يتحدثون عن الحقيقة فى نظر « الغزالى » فيستنبطونها من أى كتاب يقع فى يدهم ؛ لأننا فهمنا أن للغزالى كتباً خاصة ، تصور الحقيقة كما هى ، وكما يدين الله عليها ، فهى وحدها التى تصور الحقيقة عند الغزالى . أما ما عداها من الكتب ، فإنما تصور الحقيقة عند الطائفة التى قدمت لها .

وما مثل من يستنبط آراء « الغزالى » من الكتب التى قدمها إلى الجمهور ، إلا كمثل من أراد أن يعرف الطعام الذى يتناوله أحد الأطباء ، فعمد إلى كشف أعده الطبيب لأحد مرضاه ، وقرأ ما فيه من أنواع الطعام الخاصة بذلك المريض ، وأعتقد أنها هى الأنواع التى يتناولها الطبيب نفسه ، المعافى مما يشكوه ذلك المريض .

فمن أراد أن يدرس « الغزالى » من حيث هو مصلح دينى ، عنى بإرشاد الناس وتعليمهم ، فليدرسه فى كتبه التى قدمها إلى الجمهور ، وسيجد الباحث

أن الغزالى تنزل إلى مستوى الناس ، وخاطب كلا بما يليق به ، حتى قال :

[يجب على كل من يتصدى لهداية الناس وإرشادهم ، أن يراعى حال المخاطب ، فيناظر كل أحد بما يحتمله فهمه ، فإن وقع له مسترشد تركى أو هندى أو بليد الطبع ، وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته فى مكان ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه ، لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ، ويكذب به ؛ فينبغى أن يقرر عنده : أن الله تعالى على العرش ، وأنه يرضيه عبادة خلقه ، فيفرح بهم ويثيبهم ، ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاء ، وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين ، يكشف له . فالمذهب بهذا الاعتبار ، يتغير ويختلف ، ويكون مع كل أحد بحسب ما يحتمله فهمه] .

فمثلا لما أراد الغزالى أن يؤلف فى علم الكلام ، تنزل إلى مستوى علماء الكلام وقراء علم الكلام فأغفل الحديث عن المجردات ؛ لأنهم ينكرونها .

ففى كتابه « الاقتصاد فى الاعتقاد » ، الذى هو أرقى كتبه الكلامية[1] يناقش المعتزلة الذين لا يرون أن فى فترة البرزخ ، عذاباً ولا نعيما ؛ محتجين بأنهم يرون شخص الميت . ولا يلاحظون عليه أثر عذاب ولا نعيم ، فيقول لهم[2] :

[هذا هوس . أما مشاهدة الشخص ، فهى مشاهدة لظاهر الجسم ، والمدرك للعقاب جزء من القلب ، أو من الباطن كيف كان] .

ويأبى أن يصرح حول الروح ، بأكثر من هذا ، فلا يقول لهم : إنها كائن مجرد ، لا يدرك بالحواس . ولا ينال هو ولا عوارضه . بالمشاعر . ولم يشأ أن يرد عليهم بما قرره فى كتابه « الأربعين فى أصول الدين » من مثل قوله[3] :

[أما قولك إن المشهور من عذاب القبر ، التألم بالنيران والعقارب والحيات فهذا صحيح ، وهو كذلك ، ولكنى أراك عاجزاً عن فهمه . ودرك سره وحقيقته ، إلا أنى أنبهك على أنموذج منه ، تشويقاً لك إلى معرفة الحقائق ، والتشمر للاستعداد لأمر الآخرة ، فإنه نبأ عظيم أنتم عنه معرضون .

---

(١) بل أرقى كتب الكلام لعصره على الإطلاق كما صرح هو فى النص السابق ص ١٢٨ .

(٢) ص ٩٧ .

(٣) ص ٢٨٥ .

فقد قال عليه السلام : « المؤمن فى قبره ، فى روضة خضراء ، قد فرّج له قبره ، سبعين ذراعاً ، ويضىء وجهه حتى يكون ، كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيم أنزلت « فإن له معيشة ضنكا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر فى قبره ، يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، هل تدرون ما التنين ؟ ! تسع وتسعون حية ، لكل حية تسعة رؤوس ، ينهشونه ويلحسونه ، وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون .

فانظر إلى هذا الحديث ، واعلم أن هذا حق ، على الوجه الذى شاهده أرباب البصائر ، ببصيرة أوضح من البصر الظاهر ، والجاهل ينكره ، إذ يقول : إنى أنظر ٠ قبره ، فلا أرى ذلك أصلا . فليعلم الجاهل : أن هذا التنين ليس خارجاً عن ذات الميت ، أعنى ذات روحه ، لا ذات جسده ، فإن الروح هى التى تتألم وتتنعم[١] ، بل كان معه قبل موته ، متمكناً من باطنه ، لكنه لم يكن يحس بلدغه ، لخدر كان فيه ، لغلبة الشهوات ؛ فأحس بلدغه بعد الموت .

وليتحقق أن هذا التنين مركب من صفاته[٢] ، وعددُ رؤوسه بقدر عدد أخلاقه الذميمة ، وشهواته لمتاع الدنيا ، وتتشعب عنه رؤوس بعدد ما يتشعب عن حب الدنيا ، من الحسد والحقد ، والكبر والرياء ، والثروة والمكر ، والخداع ، وحب الجاه والمال ، والعداوة والبغضاء .

وأصل ذلك معلوم بالبصيرة ، وكذلك كثرة رءوسه اللداغة .

أما انحصار عددها فى تسعة وتسعين ، إنما يوقف عليه بنور النبوة فقط .

فهذا التنين متمكن فى صميم فؤاد الكافر ، لا بمجرد جهله بالكفر[٣] ، بل لما يدعو إليه الكفر ، كما قال الله تعالى ، «ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » . وقال تعالى : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها

---

(١) ألا يشير هذا إلى البعث الروحانى ؟ ! وسيأتى مزيد بحث فيه .

(٢) انظر إلى لجوء الغزالى إلى التأويل المفرط ، مع أنه ذهب فى التهافت ، إلى أن الفلاسفة لما أولوا فى آيات البعث الجسمانى ، وحملوها على التمثيل والتشبيه ، ظنا منهم عدم طاقة أكثر الناس لفهم الحقيقة الغيبية على صورتها الحقة ، كانوا مكذبين للرسل ، لأن أمر هذه الظواهر بلغ من الكثرة حدا لا يسوغ معه التأويل ، وهذا على خلاف الآيات المتشابهات فى حق الله ، فإن الدليل العقلى دعا إلى صرفها عن ظواهرها ، ولم يدع إلى التأويل فى آيات البعث الجسمانى مثل هذه الداعية ، فاللجوء إلى صرفها عن ظواهرها تكذيب للأنبياء .

(٣) الباء للتصوير .

فاليوم تجزون عذاب الهوان » الآية .

وهذا التنين لو كان كما تظنه ، خارجاً من ذات الميت لكان أهون ، إذ ربما يتصور أن ينحرف عن التنين ، أو ينحرف هو عنه ، لا ، بل هو متمكن من صميم فؤاده ، يلدغه التنين لدغاً أعظم ، مما تفهمه من لفظة التنين ، وهو بعينه صفاته ، التى كانت معه فى حياته ، كما أن التنين الذى يلدغ قلب العاشق ، إذا باع جاريته ، هو عينه العشق الذى كان مستكناً فى قلبه ، استكنان النار فى الحجر ، وهو غافل عنه ، فقد انقلب ما كان سبب لذته ، سبب ألمه ، وهذا سر قوله عليه السلام : « إنما هى أعمالكم ترد عليكم » . وقوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » بل سر قوله تعالى : « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » .

أى أن الجحيم فى باطنكم ، فاطلبوها بعلم اليقين ، لتروها ، قبل أن تدركوها بعين اليقين .

بل هو سر قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ، ولم يقل : إنها ستحيط ، بل قال « إنها محيطة » وقوله تعالى : « إن اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها » ، ولم يقل « يحيط بهم » وهو معنى قول من قال[(١)] « إن الجنة والنار مخلوقتان »[(٢)] وقد أنطق الله لسانه بالحق ولعله لا يطلع على سره[(٣)] .

فإن لم تفهم بعض معانى القرآن[(٤)] كذلك ، فليس لك نصيب من القرآن إلا قشوره ، كما ليس للبهيمة نصيب من البر إلا قشوره ، الذى هو التبن ، والقرآن غذاء الخلق كلهم ، على اختلاف أصنافهم ، ولكن اغتذاؤهم به على قدر درجاتهم ، وفى كل[(٥)] غذاء مخ ، ونخالة وتبن ، وحرصُ الحمار على التبن ،

---

(١) هم الأشاعرة .

(٢) وهذا يشير مرة ثانية إلى رأى الغزالى فى البعث .

(٣) انظر كيف ينتقد الأشاعرة هنا ثم انظر إلى قيمتهم عنده فى كتاب التهافت وغيره من الكتب الكلامية .

(٤) انظر كيف يريد إخضاع القرآن لمثل هذا التأويل المفرط الذى أخضع له هذا الحديث .

(٥) لعله يريد أن يقول : إن فى القرآن صوراً مختلفة وألواناً متعددة للحقيقة فهى بالنسبة لكل على قدر ما يحتمله فهمه .

أشد منه على الخبز ، المتخذ من اللب ، وأنت شديد الحرص على أن لا تفارق درجة البهيمة ، ولا تترقى إلى رتبة الإنسانية بل إلى الملكية : فدونك والانسراح فى رياض القرآن ففيه متاع لكم ولأنعامكم] .

فلم يشأ الغزالى أن يجيب المعتزلة فى كتابه الكلامى « **الاقتصاد فى الاعتقاد** » بمثل ما حادث به المتصوفة فى كتابه « **الأربعين فى أصول الدين** » من أن الروح كائن مجرد وعذاب الميت فى القبر ونعيمه ، روحى صرف لا يخضع لإدراك الحواس .

وهو لا يقتصر فى كتابه هذا — أعنى الاقتصاد — على عدم تصوير الروح بأنها كائن مجرد ، بل هو يهمل المجردات جملة . إذ يقرر الدليل على وجود الإله فيقول[1] :

[إن العالم حادث ، وأعنى بالعالم كل موجود سوى الله تعالى ، وأعنى بكل موجود سوى الله تعالى الأجسام كلها وأعراضها] .

ثم يقيم الدليل على حدوث الأجسام والأعراض . فيتم له أن العالم الذى هو كل ما سوى الله تعالى حادث ، وكل حادث يحتاج إلى محدث ، هو ليس من العالم ، وذلك الخارج عن العالم هو الله .

فلو كان يريد أن يتعرض للخوض فى المجردات ، لما كفاه هذا البيان ، لأن الذى يخلص له حينئذ من حدوث الأجسام والأعراض : أن بعض العالم حادث ، والدليل على وجود الله[2] لا يتم إلا إذا أثبت أن كل العالم حادث ؛ لأنه حينئذ تظهر الحاجة إلى المحدث الخارج عن العالم .

أما إذا كان بعض العالم فقط ، هو الحادث ، فيجوز أن يرجع البعض المحدث فى حدوثه ، وفى كل ما يحتاج إليه ، إلى البعض الذى لم يثبت حدوثه ، فيظل العالم فى غنى عن شىء خارج عنه ، فلا يتم إثبات وجود الله .

فكان لابد للغزالى من إثبات حدوث المجردات أيضاً . ولكنه هنا يسدل على هذا الموضوع ستار الصمت ، بينما هو فى كتبه التى قدمها للمتصوفة ، يفيض فى أمر المجردات إفاضة عظيمة ، ويرفع من شأنها حتى يفضلها على الأنبياء ، لأنها

---

(١) ص ١٣ .

(٢) أى عن هذا الطريق .

خالية عن شوائب المادة أصل الشرور ، ومنبع الفساد[١] .

ومثلاً لما انتهى من أبحاثه الكلامية ، فى كتاب الاقتصاد ، عقد فصلاً للبحث فى الإمامة مع أنه يراها بحثاً فقهياً صرفاً وقال[٢] :

[النظر فى الإمامة ، ليس من المهمات ، وليس أيضاً من فن المعقولات . . ولكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات به ، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد ، فإن القلوب عن المنهج المخالف شديدة النفار] .

فالغزالى يراعى لكل طائفة مألوفهم ، ويحافظ معهم على تقاليدهم ومراسيمهم.

أما من أراد أن يدرس الغزالى ليعرف الحقيقة فى نظره كما يعتقدها — وهذا ما سنعالجه فى الباب التالى — فليدرسه فى كتبه التى ضن بها على الجمهور ، واحتفظ بها لنفسه ، ولطائفة اطمأن إلى أن مستواهم الفكرى يقوى على تصورها ، بعد ما نضى عنها القشور والأغشية التى تغلف بها ، حينما تقدم إلى الجمهور[٣] .

---

(١) ص ٦٥ المقصد الأسنى .

(٢) ص ١٠٥ .

(٣) وقد كان الغزالى لا ينوى أن يؤلف حول هذه الأفكار ، التى يسميها مضنوناً بها على غير أهلها وأن يبقيها ، فى صدره ، لا يبوح بها إلا شفاهاً لمن يجده أهلا لها ، وكان إذا حوم به الفكر حول هذه المعارف ، وسبقه القلم إلى تسطير شيء منها ، أسرع فكفكف جماحه وأسف على ما فرط منه .

يقول فى كتابه « المقصد الأسنى » وكان قد سبقه القلم إلى شيء من هذه المعارف :

[ولنقبض ههنا عنان البيان ، فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وأمثال هذه الأسرار لا ينبغى أن تبتذل بإيداعها الكتب ، وإذ جاء ههنا عرضاً غير مقصود فلنكف عنه] .

وقد أكثر الغزالى من ترداد هذا المعنى فى كثير من كتبه ، ولكنه لما لم يجد لعلمه هذا أهلا يشافههم به ، ويوصيهم بدورهم ألا يبوحوا به إلا لأمثالهم ، عملا بهذه الحكمة التى رددها كثيراً .

ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

خشى على هذا العلم الضياع ، فاضطر إلى تسطيره فى الكتب التى سماها مضنوناً بها على غير أهلها ، وقد قص علينا ذلك فى ختام « معارج القدس » .

ويظهر أن هذه كانت عادة العصر كله ، قال « صاحب المعتبر » المتوفى سنة ٥٤٧ ﻫ : [إن عادة القدماء من العلماء الحكماء ، كانت جارية فى تعليم العلوم لمن يتعلمها منهم ، وينقلها عنهم ، بالمشافهة والرواية ، دون الكتابة والقراءة فكانوا يقولون ويذكرون من العلم ، مايقولونه ويذكرونه ،لمن يصلح من المتعلمين والسائلين ، فى وقت صلوحه ، كما يصلح ، وبالعبارة اللائقة بفهمه ، وعلى قدر ما عندهم من العلم والمعرفة المتقدمين ، فلا يصل علمهم إلى غير أهله ، ولا إلى أهله فى غير وقته ، ولا على غير الوجه الذى يليق بعلمهم ومعرفتهم وذكائهم وفطنتهم .

وكان العلماء والمتعلمون فى ذلك الوقت كثيرى العدد ، طويلى الأعمار ، ينقلون العلوم من جيل إلى =

ولدينا الآن من هذه الكتب كتابان :

الأول « المضنون به على غير أهله » .

الثانى « معارج القدس » .

فيسوغ لنا الآن — بعد ما ناقشنا الطعون فيهما وأبطلناها — أن نعول عليهما فى شرح الحقيقة عند الغزالى .

لكنا سنعول على كتاب معارج القدس لأنه لا يخالجنا فى صحة نسبته إلى الغزالى ريبة بعد ما قام لدينا من الأدلة على ذلك من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى واف ، قد تناول كل ما فى الكتاب الآخر ، من أبحاث وزاد عليها .

ولن نرجع إلى كتاب المضنون به على غير أهله ، إلا فى مسألة واحدة ، هى مسألة البعث . وسيكون بحثنا عنها تكميلياً لا أساسياً . وسننبه عليها فى موضعها .

= جيل ، بأسرها وعلى أتم تمامها ، فلا يضيع منها شىء ولا ينسى ، ولا يقع إلى غير أهله .

فلما قل عدد العلماء والمتعلمين ، وقصرت الأعمار ، وقصرت الهمم ، وانقرض كثير من العلوم ، لقلة المتعلمين والناقلين ؛ أخذ العلماء فى تدوين الكتب وتصنيفها ، لتحفظ فيها العلوم ، وتنقل من أهلها إلى أهلها ، فى الأزمان المتباينة ، والأماكن المتباعدة ، واستعملوا فى كثير منها الغامض من العبارات والخفى من الإشارات ، التى يفهمها أرباب الفطنة ، ويعرفهما الأكياس من أهل العلم ، صيانة منهم للعلوم عن غير أهلها .

فلما استمر الأمر فى تناقص العلماء ، وقلتهم فى جيل بعد جيل ، أخذ المتأخرون فى شرح ذلك العويص ، وإيضاح ذلك الخفى ، ببسط وتفصيل ، وتكرار وتطويل ، حتى كثرت الكتب والتصانيف ، وخالط أهلها فيها كثير من غير أهلها ، واختلط فيها كلام الفضلاء المجودين ، بكلام الجهال المقصرين .

فلما قدر لى الاشتغال بالعلوم الحكمية ، بقراءة الكتب التى نقلت عن المتقدمين ، والتفاسير والشروح والتصانيف ، التى شرحها وصنفها المتأخرون ، كنت أقرأ كثيراً ، وأكب عليه إكباباً طويلا ، حتى أحصل منه علماً قليلا ، لأن كلام القدماء كان يصعب فهم كثير منه ؛ لاختصاره وقلة تحصيله ومحصوله واختلال عباراته فى نقله ، من لغة إلى لغة ؛ وكلام المتأخرين لأجل طوله وبعد دليله عما يدل عليه ، وحجته عن محجته ، وإعواز الشرح والبيان المحققين فى كثير من المواضع ؛ إما للغموض ، وإما للإعراض ، فيتعذر الفهم لأجل العبارة والشرح ، والعلم لأجل الدليل والبينة .

فكنت أجتهد بالفكر والنظر ، فى تحصيل المعانى وفهمها ، والعلوم وتحقيقها ، فيوافق فى شىء لبعض ويخالف فى شىء آخر لبعض من القدماء فى أقاويلهم . وتحصل بإشباع النظر فى صحيفة الوجود من ذلك ، ما لم يقل أو ينقل ، وكان ذلك جميعه لا ينضبط بالحفظ ، بل يتعلق فى أوراق استبقيتها للمراجعة والتحصيل ، فاطلع على تلك الأوراق من رغب فى تبييض مصنف منها ، فامتنعت عن ذلك ، لما يقدر من وقوعه إلى غير أهله ، ممن يقبل أو يرد ما فيه ، أو شيئاً منه بجهل وقلة تأمل .

فلما كثرت تلك الأوراق وتحصل فيها من العلوم ما لا يسهل تضييعه ، مع تكرار الالتماس ممن تتعين إجابتهم ، أجبتهم إلى تصنيف هذا الكتاب فى العلوم الحكمية الوجودية ، الطبيعية والإلهية] .

obeikandl.com